لزهر غالم

الذّاكرة الميّتة

بسم الله الرحمن الرحيم
دار ساجد للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى 1442 هـ 2021م.
الإيداع القانوني: ماي 2021.
ردمك: (1- 55 -978-9931-810) (ISBN).

اسم العمل: الزّاكرة الميّتة.

اسم المؤلف: لزهر غالم.

مدير(ة) النشر: صيام يمينة حرم برحايل.
المدير التنفيذي: عبد الحميد مشكوري.
تنسيق داخلي: آسيا براهيمي.
تدقيق لغوي: نعيمة سماتي.

صفحة الدار على موقع الفيسبوك:
FACEBOOK.COM/SADJED.EDITION
البريد الإلكتروني: SAJEDEDITION@GMAIL.COM
الهاتف/الفاكس:0541389203/033554911
الناشر: دار ساجد للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف فقط ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر.

رواية

الذّاكرة الميّتة

للكاتب: لزهر غالم

الإهداء

إلى شهداء الواجب الوطني

(01)

وصلت إلى الثكنة بعد قضاء خمس أيام في "ترنزيت"، التقيت بصديقي "فهيم" بعد أن صار كبشا.

كان يرتدي بذلة عسكرية خاصة بالصاعقة، وجهه يميل إلى السمرة، عيناه غائرتان، لازالت نظرته ثاقبة، والشهادة لله لم أعرفه في بداية الأمر حتى تمعنت في محياه جيدا.

كيف لي أن أعرفه وقد تغير كثيرا؟

أكثر من ثلاث سنوات لم أره.

عرفته في الجامعة الإسلامية طالبا مجتهدا، درست معه سنة واحدة ثم حولت بعدها إلى جامعة الجزائر.

لازالت صورته في مخيلتي بقميصه الأبيض الناصع، ولحيته الكثيفة المطلية بالحناء، وحذائه الرياضي، يحمل في يده سواكا رقيقا جدا، يضع في جيبه كتيبا صغير الحجم لبعض المتون الفقهية.

لازالت هيئته ووقفته كما كانت.

في ذلك الوقت كنّا نجتمع في غرفته**D22** في الحي الجامعي على الأرض للسمر، يجلس هو على كرسي عالي، ويطلب منا أن نستفتيه ونسأله في الدين والحياة.

يتكئ على المقعد كأنه عالم من علماء الشريعة، يحمل دواة وقلما ويقول: أنت تسأل و"فهيم" يجيب.

يشير إليّ لأقدمه للإخوة المستمعين، أرفع صوتي عاليا: هنا إذاعة البحر المحيط تحييكم، وتقدم لكم الشيخ، البحر، الكبريت الأحمر، العلامة الفهامة سيدي "فهيم" ليجيب عن أسئلتكم وانشغالاتكم.

يتقدم أحد الأصدقاء وكأنه يحمل مكبرا للصوت ويسأل الشيخ: سيدي، ما حكم قتال المسلم لأخيه المسلم؟ ويسأل الآخر عن قوله تعالى: ﴿**وَمَا مَلَكَت أَيْمَانَكلم**﴾ **النساء الأية 24**، وثالث يسأل: ما حكم خصي التيوس؟ وبعد برهة من الزمن يجيب المفتي بما أوتي من علم، بالحجة والدليل والبرهان القاطع.

أيام لا تنسى.

تذكرت هذه الأحداث لما رأيت العلّامة "فهيم" يرتدي الزّي العسكري، وهو واقف أمام باب الثكنة ينظر إلى لا شيء. يحمل على كتفه نجمة صفراء، لقد سبقني للخدمة الوطنية بسنة.

لما توقفت الشاحنة قال السائق: هذه هي الثكنة، وهذا هو المستقر الأخير.

فتحت الباب وقفزت جهة الشّيخ أو بالأحرى الضّابط "سي فهيم ". كانت فرحتي لا توصف عندما اقتربت منه وتأكدت أنه هو بعينه، بينما بدأ الخبيث يضحك ضحكا هستيريا بجنون وبصوت عال.

قال: اللعنة... ماذا تفعل هنا؟ ورائي... ورائي.

قلت: لقد أنهيت لتوي التربص، وتم تحويلي إلى هذه الثكنة. فأنا كما ترى من ثيابي البالية وحذائي [لبروتكة] لازلت طالبا ضابطا احتياطيا.

اختفت عني أخبار "فهيم" منذ أربع سنوات، حيث كان يتفاخر علينا بأنه سكن في ربوع الجزائر ككل يقول: ولدت في سكيكدة وكبرت في قسنطينة، وأنا الآن أعيش في الصحراء الجزائرية.

والحقيقة أنه رحل من قسنطينة إلى أم البواقي رفقة عائلته، بعدما تحصل والده الشرطي على التقاعد، ليرحل رفقة العائلة مرة أخرى من أم البواقي إلى الصحراء لما تعرض والده وخطيبته "نوال" لهجوم إرهابي.

في كل مرة أقابله يقص عليّ حكاية "نوال" ابنة عمه التي وجدت في غرفتها جثة هامدة ملطخة بالدماء، بعد أن قتلها الأوغاد. قطعوا رأسها ورموه في القمامة، منذ ذلك اليوم و"نوال" تظهر له في صورة شبح، تدعوه إلى التحرر من جسمه، تدعوه للسفر إلى عالم ما وراء الطبيعة.

– لقد أثر فيّ هذا الصديق تأثيرا عجيبا.

يريد أن يعرف كل شيء، وعن كل شيء. لما أقول له مثلا: لنذهب إلى المطعم يقول: لماذا قلت لنذهب إلى المطعم، ولم تقل هيا لنذهب إلى المطعم؟

لا أعلق على كلامه، لأنني أعرف أنه يصاب في بعض الأحيان بالهذيان.

ذات مرة كنت في غرفته بالحي الجامعي، أخذت قارورة ماء لأشرب، انتفض من مكانه وصرخ بأعلى صوته: لا تشرب من هذه القارورة، لا تشرب!!

سألته عن السبب قال: لقد استنجيت بها لتوي.

قلت: اللعنة... إنها مشمعة، متى استنجيت بها؟

اعتراه ضحك مجنون، فعلمت أنه يستهزئ.

رفعت الكأس لأشرب، فبدا يصفر ويطيل تصفيره، نظرت إليه في استغراب قال: لدينا عادة هي أن نصفر للحمير عندما تشرب.

طبعا "فهيم" اليوم هو ليس "فهيم" الأمس، فقد حلّق تلك اللحية الطويلة الحمراء في السنة الثانية جامعي، بعد صراعه مع شبح "نوال" التي أرادت أن تتزوجه، هذه الأخيرة التي تسكن غرفته في الحي الجامعي، وأرادت القضاء عليه بعدما علمت بأنه يحب فتاة تدرس معه.

أمسك يدي وسحبني إلى داخل الثكنة، فظهرت لي أنها مدرسة قديمة. نعم إنها ابتدائية الشهيد الحسن بن الحسين – هذا ما كتب أعلى مدخل المؤسسة–.

سألت صديقي عن الأمر، فأخبرني أنها فعلا كانت ابتدائية وأغلقت أبوابها مع بداية التسعينيات بعد فرار السكان من ويلات الإرهاب، إذ بالقرب من هذه المؤسسة وقعت معارك طاحنة بين الجيش الوطني والعصابات الإرهابية، خاصة بعد خروج الشيخ "زكرياء" إمام مسجد هذه المنطقة وكبير شيوخها والتحاقه بالجبل وتكوين أول خلية إرهابية في هذه الجهة، ولمّا كان من الأعيان ومن الذين يسمع لهم فقد لبى الكثير من الشباب رغبتهم في الالتحاق به وتكونت أول خلية إرهابية.

دخلت هذه المدرسة وأول ما قابلني تلك الطاولات المتآكلة، وقد جمعت في زاوية من زوايا هذه المدرسة، تكدست بعضها فوق بعض فأعطت منظرا يوحي بالفوضى، وبالقرب من هذه الطاولات جدار تهاوى بفعل فاعل، وعلى الأرجح أنه فُجر بقنبلة أو ما شابه ذلك، لأن الحائط تفتت بالكامل.

لما وصلنا إلى غرفة القيادة، رأيت سبورة مثبتة على الحائط وأمام السبورة طاولة عريضة فوقها تلفاز ملون، وبالقرب من التلفاز أرائك سوداء وضعت على هيئة دائرة يتوسطها حوض مائي بزجاج شفاف

تسبح فيه أسماك سوداء. بالقرب من الحائط مكتبة صغيرة تظهر بعض العناوين وأغلبها في فنون القتال الكلاسيكي.

طلب مني "فهيم" الجلوس في انتظار عودة القبطان من مقر الكتيبة لأقدم له نفسي.

قال فهيم: أوصيك مرة ومرتين ألا تذكر للقبطان أنني درست الشريعة، فأنت تعرف وقع هذا التّخصص لدى الضباط خاصة في هذه الفترة.

بدأ يغمرني بأسئلة عن بعض الأصدقاء الذين درسوا معنا في المعهد ولا زلت في اتصال معهم.

كيف هي أحوالهم؟ هل منهم من أكمل دراسته؟

أخبرته أنني نسيت تلك المرحلة من حياتي، وقد طويت صفحتها منذ زمن، وأصبحت أركز على العمل، العمل فقط.

كانت له علاقة وطيدة بمدير المعهد، هذا المدير الذي كان خطه سيء جدا وهو معجب بفهيم، طلب منه ذات مرة أن يتفحص نوعية خطه.

فقال "فهيم": خطك سيدي خط دجاجة. ضحك المدير من وراء مكتبه حتى سقط على قفاه، ثم سأله: كيف لك الجرأة أن تشبه خطي بخط الدجاجة، وأنا مدير للمعهد الذي تدرس فيه؟

حديثه كله حول الجامعة، حول المناهج الجديدة التي أدخلت على المعاهد حول البيداغوجيا، هذا المصطلح الجديد الذي نسمعه في كل زاوية من زوايا هذه المؤسسة، يتكلم عن الطلبة المتفوقين وعلى الطالبات اللائي نجحن في المسابقات ويتساءل: هل حقا هناك مصداقية في هذه الامتحانات؟

يستفسر عن بعض الطلبة الذين لهم انتماءات سياسية حزبية ويعملون على استثمارها من خلال تأسيس بعض المكاتب والنوادي داخل الجامعة لنشر أفكارهم.

حاولت أن أغير حديثه من هناك إلى هنا فقلت: ذاك زمن ولى وفات، وتلك الأيام نداولها بين الناس، والإنسان ابن وقته.

في هذا اللحظة سمعت صراخ بعض الجنود في ساحة الثكنة وهم يرددون نشيد: "يحكى أنّ... أن إيه... أنّ جيش... جيش إيه... جيش عربي...

قلت: ما هذا؟ أهذه الثكنة للتدريب؟

قال: لا... ولكن هناك بعض الجنود يسترجعون ذكريات الماضي. لقد كانوا ينشدون هذه الأبيات ويرددونها ولا يؤمنون بها، فإذا هم في الجبال... والتلال... والوديان... والصحاري.

سألته: ولكن أخبرني منذ متى وأنت في هذه الثكنة؟

نظر إليّ جيدا، وحرك رأسه صعودا ونزولا قائلا: منذ سنة.

جلس قبالتي على أريكة منفردة، وشبك كلتا يديه وأكمل حديثه: لم يبق لي سوى بعض الأيام لتسريحي من الخدمة الوطنية، حينها سأصرخ بأعلى صوتي... لاكي... لاكي...سوف أصرخ حتى يبح صوتي.

سنة بأكملها وأنا في عزلة تامة، مع أفراد هذه المجموعة المكونة من ستين جنديا في هذه الربوة اللعينة.

هل تدري أن هذه السرية هي الوحيدة التي يخشاها الإرهاب في هذه المنطقة ولا يقترب منها؟ أتدري لماذا؟ لأن أفرادها لا ينامون. ليلهم نهار ونهارهم نهاران.

المهمة الوحيدة التي أوكلت لهذه السرية هي حماية الجسر الموجود أسفل هذا المرتفع، هذا الأخير الذي يربط الشرق بالغرب طوله حوالي مائة متر مزود بأضواء كاشفة. نعم هي ليست مهمة سهلة كما تعرف فالجسر نقطة استراتيجية في غاية الأهمية.

كم مرة حاول بعض الأغبياء تفجيره لولا تفطن الجنود لذلك، وملاحقة هؤلاء الأوغاد وطردهم وإبعادهم عن الجسر.

لما أبطأ القبطان في العودة، طلب مني صديقي الذهاب إلى غرفته كي أستريح، وقف هو أمام المائدة وحمل إبريق شاي وملأ كأسين ثم قدم لي واحدا.

قال: اشرب... اشرب شاي أدرار، تذوق لتنسى كل شاي شربته في حياتك الماضية. معنا جندي من الصحراء متخصص في طهي الشاي والمأكولات التقليدية الخاصة بالجنوب الكبير.

خرجنا من غرفة القيادة ودخلنا إلى غرفة الضباط، هذه الأخيرة عبارة عن قسم من أقسام هذه المدرسة، وُضع في وسطها سريران أحدها بالقرب من الباب والآخر في الجهة المقابلة.

على الجدران رسومات لعلها لبعض التلاميذ في المرحلة الابتدائية، لم يعبأ بها الجنود ولا الضباط، إذ تركوها كما هي، بل ربما لم يروها أصلا. هناك صورة لعائلة صغيرة مكونة من: الأب والأم وبنت في حديقة ما. وصور لبعض الحيوانات البرية والأليفة، وبعض الحروف الهجائية ونصائح طبية وغير ذلك.

حدثني بصوت رقيق: يمكنك أن تتكئ على هذا السرير، فصاحب هذا الفراش من بسكرة وقع له حادث قبل ثلاث أشهر، لما خرجنا في مهمة إلى الجبال المحاذية لنا، انفجر عليه لغم وبترت ساقه، ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عنه أي خبر.

كنا نناديه "الروجي"، لأن لون شعره أحمر فاقع، وهو رياضي من الطراز الأول.

درس في معهد الأدب العربي، يحب الروايات العربية والفرنسية، يلتهمها التهاما، خزانته على الدوام مليئة بالقصص والروايات وكتب الإعراب، وقد سمعت في الأسبوع الماضي من جندي زاره أنه ينوي كتابة سيرته الذاتية يروي فيها الأحداث التي جرت له في الخدمة الوطنية.

نظر "فهيم" إلى ساعته الإلكترونية وقال: اسمح لي يا صديقي بالانصراف فأنت الآن لست بالضيف، أنت صاحب الدار، لدي مهمة مع فصيلتي للخروج إلى الكدية المقابلة للثكنة، فهناك بعض الجنود عليهم أن يعودوا ولا بد لهم من حماية.

خرج من غرفته فوجد أفراد فصيلته تقف في نظام أمام سارية العلم، تلا عليهم بعض التعليمات، كأنه يحفظها عن ظهر قلب، ثم أمرهم بالمسير.

في هذا الوقت فتحت حقيبتي وأخرجت ملابسي العسكرية والمدنية ووضعتها في خزانة "الروجي"، وبدأت أشرب الشاي.

(02)

كم هو رائع أن يكون لديك صديق كفهيم، فهو خدوم لأقصى درجة، لا يتدخل في شؤون الآخرين، يكن الاحترام والمحبة للجميع.

اقتربت من النافذة التي تطل على طريق الثكنة، رأيت صديقي في مقدمة فصيلته يتجه إلى الجسر. في هذه اللحظة دخل علي جندي وألقى التحية. لأول مرة في حياتي أتلقى التحية، وبصوت منخفض قال: حضرات الملازم... القبطان في غرفة القيادة ينتظرك. أجبت: أخبره بأنني سأحضر حالا.

وقفت ورتبت هندامي ونظرت إلى وجهي في المرآة الملتصقة بالحائط، ثم أخذت الحزام والقبعة واتجهت نحو غرفة القيادة، قرعت الباب، أديت له التحية، وعرّفت بنفسي، ثم ألحقتها:" الطالب الضابط الاحتياطي".

قال: تفضل.

اتجهت نحو الأريكة المقابلة له ثم جلست، وبدأ يقص عليّ تفاصيل حياته وسبب دخوله إلى الجيش ومجيئه إلى هذه الثكنة وكأنه يعرفني منذ سنوات.

ظهر لي بأن هذا الرجل عسكري بمعنى الكلمة إذ كان كبيرا في السن وله أخلاق عالية، هذا ما اكتشفته في اللحظة الأولى من لقائي به، وبالمختصر المفيد هذا الرجل ارتحت له كثيرا، فهو يتكلم معي بهدوء عكس الضباط الذين التقيت بهم في المدرسة التطبيقية الذين لا يضحكون مع الطلبة.

سألني إن كنت أحتاج إلى شيء ما.

تشجعت وطلبت منه حذاء وحزاما، لأن حذائي [لبروتكا] ممزق وغير صالح للسير، كما أن حزامي تآكل.

ابتسم وقال: طبعا سوف تأخذ كل ما تريد، بل أنت من سوف يعطي للجنود.

قهقه بصوت عال، فضحكت لضحكه.

قال: أتدري لما أضحك؟

قلت: لا.

نظر إليّ ثم خاطبني: قبل عشر سنوات تدرّب معنا مجموعة من الجنود ذوى الشهادات العليا الذين يؤدون الواجب الوطني، واتفقوا فيما بينهم للدخول في إضراب عن الطعام، إذ كانوا متعودين على الإضرابات في الجامعة، لم يعجبهم العدس الممزوج بالحصى. فما كان من القيادة إلا أن تركتهم تلك الليلة في ساحة العلم دون أكل ولا شرب ولما كان الجو باردا جدا، سقط أغلبهم جراء الجوع.

صمت الضابط قليلا، ونظر إلى الصورة المعلقة في الجدار الذي خلفي، ثم سألني عن مكان ولادتي قلت: ولدت ببسكرة. تنهد وقال: البسكري والعسكري.

سألني عن بعض الأصدقاء من بسكرة، الذين تدرب معهم في المدرسة التطبيقية، وبالأخص سي أحمد الزياني الذي يعرف عنه تفاني في الخدمة، والمسعود الذي تزوج مؤخرا من فتاة جزائرية والتي رفضها

أهله في بادئ الأمر، إلا أنهم رضخوا للأمر الواقع بعد أن عقد قرانه عليها.

كان هذا اللقاء بمثابة تعارف، وجس النبض، وقبل أن ينهي كلامه، أعلمني أن القيادة اختارته من بين العشرات للذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية للتربص، إلا أنه لا يجيد التكلم باللغة الانجليزية، لذلك فقد اشترى بعض الأشرطة السمعية والقواميس لتعلم هذه اللغة.

كلمني كثيرا عن النقيب الذي استخلفه في هذه المنطقة، وأن الله زوده بحاسة سادسة إذ كان يشم رائحة الإرهابي على بعد مئات الأمتار، قتل منهم الكثير، فكانت العصابات الإرهابية تخشاه وتهابه وتحسب له ألف حساب.

لما أنهى القبطان هذا الاجتماع المصغر وقف وهو يحمل في يده فنجان شاي، اتجه نحو الباب فسدّ ضوء الشمس الذي يدخل إلى المكتب، فوقفت بدوري وسرت وراءه.

خرجنا إلى السّاحة، فإذا ببعض الجنود يتغامزون، أحدهم أشار لحذائي [لبروتكا] ثم ضحك وقال لصديقه: خروف.

أغضبني هذا التصرف وغلى دمي، وكنت على وشك أن أشتم وأسب، قلت في نفسي: علي التريث حتى أفهم الجو العام.

بدأ القبطان أكثر ذكاء، إذ نادى عسكريا وقال له:" تاج" — وكان هذا اسمه– اذهب مع الملازم إلى المخزن وأعطه ما يلزمه من لباس وبطانيات وأدوات الأكل والشرب.

سار أمامي "التاج" وكان طويلا عريضا يحمل على كتفه شارة مساعد أول، عيناه غائرتان ذو أنف مسماري حاد من الشرق الجزائري.

دخلت معه إلى المخزن، فأخذت أفضل حزام، وصراحة لأول مرة أرى هذا النوع من الأحزمة، فهو شبيه بأحزمة الحماية المدنية، وأخذت "رونجاسا" لماعا على مقاسي، وبعض الألبسة الداخلية وبطانيات، وأدوات الأكل والشرب وغير ذلك.

نادى المساعد الأول أحد الجنود وأمره بأن يأخذ هذه اللوازم إلى غرفة الضباط.

أخبرني "التاج" أنه أقدم عسكري في هذه الثكنة، وأن تكوينه وتخصصه في سياقة العربات المدرعة، حدثني عن الحياة في هذه الجهة وعن صعوبتها، حدثني عن محيط الثكنة وأنه لم يخرج إلى المدينة قرابة الشهر، وأنه نسي صورة المدنيين.

حدق إلى الأرض وقال: في الأسبوع الماضي أحضر قائد الوحدة تلفازا كبيرا لمشاهدة بعض العروض الرياضية، وكان من بين المتسابقين فتيات، فصرخ جميع الجنود انظروا نساء... نساء... نساء. ثم أردف قائلا: وكأن الجنود رأوا كائنات فضائية عجيبة.

(03)

رجعت إلى الغرفة فوجدت صديقي "فهيم" قد عاد، غيّر ملابسه بعد الانتهاء من مهمته، دخل إلى الحمام واغتسل، ولما خرج اقترب من رزنامة معلقة على الجدار، وأخذ قلما ووضع علامة Xعلى تاريخ اليوم.

قال: اليوم الثالث عشر من هذا الشهر، لم يبق على إنهاء الخدمة الوطنية سوى يومان، هما بطعم سنتين... لاكي... يا صديقي تناديني.

لست أدري ماذا تعني كلمة لاكي؟ غير أن لها وقعا خاصا، لاكي هي الحرية، لاكي هي الانطلاق والطيران في الفضاء هي العودة إلى الأصل هي النيرفانا.

خطر ببالي سؤال: ماذا سوف تعمل في حياتك المدنية؟ أعتقد أنه لا يوجد أي عمل خارج هذه الثكنة، وأنت تعلم بأن العمال المرسمين يطردون من مناصب عملهم بالآلاف، فمن المستحيل أن تجد عملا.

قال: تكلم عن نفسك يا صديقي، فأنا أعمل أي شيء: تاجرا، فلاحا، طلّابا. أهاجر إلى إيطاليا إلى أي مكان، أنا كائن مطاطي أتأقلم مع جميع الظروف.

– ثم لماذا أعمل؟

سكت مدة من الزمن حتى ظننت أنه نسي سؤالي، وقال: لدي خيمة بيضاء جديدة، أنصبها في ساحل مدينتي سكيكدة حيث ولدت وترعرعت هناك، أقوم بكرائها للسّياح في كل صيف، فتدر عليّ أموالا طائلة، لدي الكثير من المضلات الشمسية والمقاعد والطاولات للكراء. لا تخف علي يا صديقي، فأنا أحسن السباحة في هذا الجو العفن.

خطر ببالي أن أسأله: كيف استطاع حلق لحيته؟ وهو الطالب المتشدد، الذي كان يحرّم حلقها على الآخرين.

قلت في نفسي: لا يجوز أن أحرجه في اليوم الأول.

وقف وراء النافذة ينظر إلى الجسر وإلى المدينة، والمساكن تبدوا كأحجار الدومينو، الواحدة ملتصقة بأختها، وتمتم: لما أقبلت إلى هنا

منذ سنة تقريبا كان محرّم علينا الدخول إلى هذه المنطقة، لا أحد يستطيع الوصول إلى هذا الهضبة فهي مليئة بالألغام التقليدية والقنابل المتفجرة والهبهاب المنصوب على الأشجار.

مرت علينا أيام عصيبة ونحن نقوم بتمشيط هذه الغابة، أيام البرد والثلج، ليس هناك بطانيات ولا بنايات للاحتماء بها، أسابيع ونحن في العراء تحت الأمطار والعواصف الثلجية. إلى أن وصلنا إلى هذه الهضبة التي يسميها الأهالي "هضبة الخروبة"، أحضرنا مجموعة من الآلات المجنزرة التي لا تؤثر فيها القنابل، واتجهنا إلى هذا المرتفع، ونحن نسير في خطى ثابتة وراء الآلات الثقيلة.

وقعت معركة طاحنة في ذلك اليوم، واستطعنا القضاء على خمسة مجرمين، ليفر الباقي أسفل هذه الهضبة حيث توجد مجموعة من السكنات المهجورة، بعد أن هرب السكان وتركوها للإجرام والمجرمين، ليتم تطويق هذا الحي والقبض عليهم.

إنه انتصار عظيم ونحن نصل إلى هذه الهضبة، إنه فتح من الله ونحن ندخل إلى هذه المدرسة، ونعثر على مخبأ الأعداء وسط ساحتها، حيث توجد مغارة طويلة، يختبئ فيها مفتي الإرهابيين وبعض الخدم.

طلب منهم القبطان الخروج، فرفضوا فلم يكن لديه حل إلا ردم هذا المخبأ على رؤوس من فيه، بواسطة الجرافة بعد أن رمي داخل هذه المغارة ثلاث قنابل يدوية.

وجدنا مجموعة من جثث المدنيين المقطوعة الرؤوس، وساقية من الإسمنت المملوءة بدماء الأبرياء وبعض الكتب التحريضية، وأثواب منشورة على أشجار الزيتون بالقرب من الساحة، وبيت بلاستيكي أمام الباب الخارجي للمدرسة، كان يستعمل على الأغلب في الاجتماعات والمحاكمات.

أما المؤونة فيضعونها في براميل حديدية أو بلاستيكية تحت الأرض ويملؤونها بالدقيق وزيت الزيتون والسكر والحليب وغير ذلك.

حديث صديقي "فهيم" طويل، لم يوقفه إلا دق الباب.

نهض وفتح الباب، فإذا بالقبطان يدخل في عجلة من أمره، قال: أنا ذاهب إلى مكتب الرائد فقد طلبني، وأنت لا تتحرك من الوحدة وأبق على اتصال معي.

رد فهيم: عُلم حضرة القبطان.

اتجه النقيب إلى مخزن السلاح وأخذ مسدسا ورشاشا وقنبلتين، ثم ركب سيارته الحمراء واتجه نحو مكتب الرائد.

في هذا الوقت بدأت مجموعة من العساكر يستعدون للمناوبة الليلية وعلى رأسهم المساعد الأول "التاج"، فسمعته يعطي تعليماته.

- يجب على الجميع ارتداء الخوذة والشعار.

- يجب استعمال قواعد التخاطب وكلمة السر التي تتغير كل ساعة.

- المحافظة على السلاح ونظارة الميدان الليلية.

- عدم إشعال النار، والسجائر، عدم إشعال مصباح الجيب إلا للضرورة القصوى.

قلت لصديقي: إذا سوف يبيت القبطان في مكتب الرائد؟

قال: حتما سيبيت هناك، فهو لا يستطيع أن يغامر ويعود ليلا، وأنت تعلم أن مركز القيادة يبعد عشرين كيلومتر عن هذه الثكنة، زيادة على أن الطريق ملتوي وسط أشجار كثيفة.

سكت مدة من الزمن ثم قال: اتبعني لنتفقد الحراسة.

صعد إلى سطح الثكنة، حيث الجنود كل واحد في زاوية من زوايا السطح، وسط برج حديدي، بدأ يستفسر عن حال كل جندي، كيف الحال؟ هل تناولت عشاءك؟ ارتدي ثيابك الصوفية فالجو هذه الليلة بارد جدا على ما يبدو.

اقترب مني وأشار إلى مرتفع قريب من "هضبة الخروبة" وقال: ذات ليلة هجموا علينا من هنا، أطلقوا علينا الرصاص لكنهم لم يستطيعوا الاقتراب من المدرسة.

سكت قليلا ثم أردف: أمرت الجميع بعدم الرد، فما كان منهم إلا أن انسحبوا.

رجعنا إلى الغرفة وارتميت على السرير، أما صديقي فقد أخرج ألبوم صور وبدأ يقلبه ذات اليمين وذات الشمال، يشرح لي سبب التقاط كل صورة.

توقف عند صورة شمسية صغيرة ودمعت عيناه ثم سمعته يتمتم: هذا "الروجي" الذي انفجر عليه هبهاب كان منصوبا على شجر التفاح، استشهد في لحظته.

سقطت صورة أخرى من الحجم الكبير، اعتقدت أنها صورة أخته الوحيدة، غير أنه فاجأني قائلا: هذه" نوال" خطيبتي رحمها الله كانت هبة من الله اغتالتها أيادي الإجرام.

مرت تلك الليلة كسرعة البرق، لم ننم ولم يغمض لنا جفن، فقد استرجعنا ذكرياتنا القديمة. وفي الصباح الباكر دق المساعد الأول باب الغرفة، ثم دخل علينا فوجدنا في أتم الاستعداد.

قال: حضرة الملازم، هناك ثلاثة إرهابيين تائبين أسفل الجبل، يطلبون منا النزول إليهم.

انتفضت من مكاني واتجهت نحو النافذة لأرى وجوههم، فقد سمعت عنهم الكثير أثناء تربصي، فإذا الدنيا بيضاء بالثلج، ووجوههم لا تكاد ترى من بعد المسافة.

قال "فهيم": سوف نسأل القبطان ماذا نفعل؟

خرج إلى السّاحة وطلب من العريف المكلف بالاتصال أن يخبر القبطان بمجيء التائبين، ويسأله إن كان بإمكاننا النزول إليهم والاستفسار عن مجيئهم.

سمعت القبطان وهو يجيب بصوت عال: لا تنزلوا قد يكون ذلك فخ، واطلبوا منهم الرجوع في المساء ريثما أعود إلى الثكنة.

خرجت مع صديقي الملازم أمام الثكنة، وهو يصرخ بأعلى صوته في وجه التائبين الواقفين أسفل الهضبة: تراجعوا لأننا لا نستطيع النزول إليكم في هذا الجو، عودوا في المساء.

لأول مرة أرى هذه الأشكال، كانوا يرتدون اللباس الأفغاني ويحملون أسلحة رشاشة.

قلت لصديقي: انظر للذي على اليمين أليس هو "عيسى" الذي درس معنا في الجامعة؟ وانظر لرفيقه إنه "سعيد الأعرج" الذي كان يصلي بنا في مسجد الحي الجامعي.

قال بعد أن تأفف: وما أدراني! الناس تتشابه.

ظهر "عيسى" أصغر بكثير مما كان عليه، عرفته في فترة الجامعية بدينا، وبطنه بارزة، ثقيل في سيره، أما الآن فهو ضامر البطن رشيق القوام خفيف السير، يرتدي لباسا وسخا رثا، ويحمل رشاشا، بينما "سعيد الأعرج" بقي هو هو، لم يتغير فيه شيء.

عاد هؤلاء من حيث أتوا، ووقفنا نتتبع مسير عودتهم فإذا بصراخ يأتي من مرقد الجنود. التفتُ إلى صديقي في استفهام.

قال: يبدوا أنه شجار بين الجنود.

أسرع إلى هناك ووقف بينهم يستفسر عن الأمر، اقترب جندي من "فهيم" وأسر له: الأمر يتعلق بجندي سرق نقود زميله.

دخل إلى المرقد ووقف أمام سرير المدعى عليه، ثم أمرهما بالخروج إلى ساحة العلم. انصاع الجنديان للأمر ومكثا هناك حوالي ساعة من الزمن تحت صوت الرعود وصفير العواصف الثلجية.

بعد ما أنهكهما التعب أمرهما بالحضور إلى المكتب، وسألهما عن سبب هذا الشجار. ادعى الأول أن زميله سرق منه مبلغا ماليا معتبرا، بينما الآخر أنكر الأمر تماما.

جلست أمام فهيم والمتخاصمين وتساءلت في قرارة نفسي: كيف يمكن أن يحل هذا اللغز؟

وقف صديقي ثم اقترب من جرس الإنذار وضغط على الزر، فأحدث هلعا كبيرا لدى الجنود، أسرع كل واحد منهم لارتداء لباسه العسكري، وفي لمح البصر اجتمع الكل أمام مخزن السلاح لأخذ سلاحه وهم يشكلون صفوفا مستقيمة، كل في فصيلته وبدأ المساعد والرقباء يتساءلون: ماذا حدث؟

بينما اتجه "فهيم" نحو المرقد، وسأل عن خزانة المدعي عليه وبدأ يفتش، أخرج كل ما فيها، وبعد جهد جهيد وحوار مع بعض أصدقاء

المدعي عليه، أخرج النقود من وسط باب الخزانة.

رجع صديقي إلى المكتب فوجد الجندي المدعى عليه يبكي، وهو يقسم بأغلظ الإيمان بأنها نقوده التي سرقها منه في الأسبوع الماضي.

لم يتركه يكمل حديثه وأمر المساعد الأول المكلف بالمناوبة بأخذه إلى السجن.

نزع الجندي خيوط حذائه آليا، ثم سار باتجاه غرفة كنت أعتقد أنها مرحاض لصغرها، وأغلق عليه الباب الحديدي بسلسلة، ثم قال للمناوب لما يأتي القبطان ينظر في أمره.

تقدم "فهيم" من جميع الجنود الذين يقفون في صفوف وطلب منهم تنظيف العربات المدرعة، وتشغيل الشاحنات، وقال بعد أن سحب نفسا عميقا: لقد مرت مدة طويلة دون تنظيف العربات والمركبات، فاعملوا على صيانتها وتشغيلها.

(04)

في المساء سمعنا انفجارا وطلقات نارية تبعد حوالي خمس مائة متر عن الثكنة، توقف الجميع عن الحركة وانتبهوا نحو مكان الصوت، ثم ظهر وسط الضباب ثلاثة أشخاص يهرولون نحو الثكنة: شيخ طاعن في السن وولديه، وصلوا بصعوبة بعد أن أنهكهم الركض عبر الطريق المعبدة.

سألهم فهيم: ما الأمر؟ ما هذا الصوت؟

قال الشيخ: إرهابيون أطلقوا الرصاص على سيارة سياحية حمراء.

التفت صديقي للتاج وقال: لقد قتلوا القبطان... نصبوا له كمينا.

أسرع فهيم إلى المخزن وحمل رشاشا وكمية من الذخيرة والقنابل، وأمر فرقة المناوبة باللحاق به إلى مكان الحادث.

كانت لدي فكرة صغيرة حول مكافحة الإرهاب، فقد درسنا فيما مضى أنه على الجندي الذي يريد ملاحقة الإرهابي أن يرتدي لباس المحارب: الخوذة والواقي ضد الرصاص والشعار، وأن تكون الملاحقة بعقلانية بدون تهور واندفاع، لأنه قد يقوم العدو بنصب كمين

لقطع الإمداد. بينما صديقي خرج بقبعته المزركشة، لم يترك لي الفرصة لأن أقول له ربما يكون ذلك فخ فلتأخذ حذرك.

لما وصلت المجموعة إلى عين المكان، لم يتعرف الجنود على القبطان لأن وجهه مشوه بالكامل بعد أن أطلقوا عليه الرصاص وإشعال النار في السيارة. أما الفتاة التي كانت تقود السيارة فلم تصب بمكروه، لأن قطاع الطرق أخرجوها وساقوها معهم كما تساق الشاة إلى الذبح، هذا ما قاله شهود عيان.

لم يدم وقت طويل حتى هاتف "فهيم" الثكنة، وأعلم المساعد الأول أن الفقيد ليس هو القبطان.

ثم أردف قائلا: بعض المدنيين يعرفون الضحية قالوا: إنه أستاذ في إحدى الثانويات، تزوج في السنة الماضية، وجاء لزيارة والده الذي يسكن في الحي المقابل للثكنة، ولما قمت بسحب وثائق سيارته عرفته، إنه "موسى لهودي" وزوجته "دنيا".

قال المساعد: لقد كان القبطان هو المقصود بالعملية، سوف أعلمه بالأمر.

أردف "فهيم": لقد وصلت سيارة مدنية إلى عين المكان، فطلبنا من صاحبها أن يساعدنا في نقل جثة الفقيد إلى الثكنة ريثما يأتي القبطان.

كنت أقف وراء سور الثكنة، حيث يمكن أن أرى كل ما يحدث تحت هذه الهضبة، وبصعوبة لمحت طيف السيارة المدنية لأن الضباب يحيط بكامل "هضبة الخروبة".

كانت السّيارة من نوع "تويوتا" بيضاء، ويبدو أن صديقي صعد من الأمام، بينما الفقيد في الخلف رفقة مجموعة من الجنود، ظهرت لي وكأنها تسابق الريح في سرعتها، وعجبت من السائق كيف له أن يسير بهذه السرعة والأرض مبللة بهذا الشكل.

وصلوا إلى منحدر خطير تقطعه مجموعة من المجاري المائية، ثم اقتربوا من الجسر الكبير، وإذا بانفجار ضخم يرفع السيارة، فانقلبت بمن فيها، وسقطت أسفل الوادي.

صرخ جميع الجنود الذين كانوا بالقرب مني وهم يشاهدون ويتتبعون ما يحدث كأنه فيلم رعب.

قال المساعد: أنظروا من يجري هناك...! انظروا إلى أسفل المنحدر هناك تحت الأشجار، إنه "عيسى" الذي يدعي بأنه من التائبين رفقة صديقه الأعرج يخطفان زوجة "موسى لهودي" بعد أن فجرا القنبلة.

قلت في نفسي: "عيسى" يقتل "فهيم" ويخطف "دنيا"، هل هي تصفية حسابات؟

اتجه "عيسى" وصديقه الأعرج نحو الغابة الممتلئة بأشجار العليق، حيث لا يرى الشخص صديقه، ليختفي هناك رفقة الفتاة.

صاح المساعد الأول في وجه الجنود، ماذا تنظرون؟ تحركوا لحماية المجموعة.

وفي لمح البصر أخذ الجميع سلاحهم ونزلوا إلى مكان انفجار السيارة، أسرعت مع المجموعة لأطمئن على صديقي.

لم تمضي خمس دقائق وإذا بالجميع أمام السيارة التي سقطت في الوادي، والمساعد الأول يأخذ بين يديه سلكا كهربائيا طويلا ويقول: هذا هو دليل الجريمة. بهذا السلك تم تفجير الجسر، الثأر وحده من يشفي الغليل ويخمد الأحزان.

ثم بدأ يحدث نفسه ويتكهن: لقد وضعوا القنبلة البارحة تحت الجسر وربطوها بهذا السلك الكهربائي ثم قاموا بتفجيرها، هذا هو السيناريو الذي حدث.

أخرج الجنود "فهيم" من الوادي، بينما قامت مجموعة أخرى من الجنود بمساعدة الأفراد الذين أصابتهم جروح خطيرة بالصعود إلى الطريق وقدمت لهم إسعافات أولية.

اقتربت من "فهيم" فإذا ملامحه تكاد تختفي.

يا الله... ليتني لم أر هذا المشهد المؤثر، ليتني لم أر وجهه المشوه. حاولت أن أحركه لكن دون جدوى.

قال المساعد الأول: رحم الله الفقيد.

قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، لم يبق له على إنهاء الخدمة الوطنية سوى يوم واحد. رفع المساعد الأول جهاز الاتصال، وسمعته يكلم قائد السرية: أشرف **23** استشهد، وكان هذا اسمه الحربي.

شعرت بغيبوبة انتابتني، وأذناي لم تعد تسمع شيئا، أمسكت رأسي فقال المساعد الأول: ما بك؟

قلت: لم أعد أقوى على الوقوف، أشعر بدوار، سوف أسقط.

رد بسرعة: تنفس بعمق. تنفس بعمق. ثم قدم لي القليل من الماء وقال: اشرب.

خاطب قائد السرية المجموعة وأعطي تعليماته عبر اللاسلكي: كونوا على حذر، لا تجتمعوا في مكان واحد، أنا في الطريق.

وضع بعض الجنود رأس "فهيم" في كيس بلاستيكي ليخفوا التشوه الذي وقع له، فاقتربت منه ونزعت عنه الكيس وقمت بتغطيته بسترتي.

لم يمض وقت طويل حتى وصل القبطان فوجدني أبكي على فقدان صديقي.

سألني: هل تعرفه؟

أجبت: درس معي في الجامعة.

أردف قائلا: سوف تأخذ الشهيد إلى أهله.

يا إلهي... ماذا سوف أقول لأهله؟

لقد استشهد والده وخطيبته في يوم واحد في السنوات القليلة الماضية، وها هو يلحق بهما، ها هو يلحق بـ "نوال" التي كانت تظهر له في غرفته وتدعوه لزيارتها.

وصلت سيارة الإسعاف الخاصة بالقيادة، وامتلأ المكان بالعساكر لتمشيط المنطقة، البعض يقوم بتصوير الجثة والبعض الآخر يسأل العساكر والمدنيين: كيف وقع الحادث؟

تقدم بعض الممرضين رفقة طبيب الوحدة لأخذ الجرحى والفقيد إلى المستشفى، ثم اقترب النقيب من جثة "فهيم" وقام بتفتيشها وأخذ كل الوثائق الخاصة به، ومبلغ مالي ومفكرة صغيرة.

ثم أسر إليّ وبصوت ضعيف: عليّ أن أهتف لوالدته، وأخبرها بالأمر كي تكون على علم.

قلت: هذا عين الصواب.

نظر إلي ودقق في ملامحي وقال: عليك أن تستعد من الآن للذهاب مع جنازة الفقيد لتقديم العزاء لأهل الميت.

قلت: سوف أقوم بالواجب.

عدت إلى الثكنة رفقة مجموعة من العساكر. دخلت إلى الغرفة فإذا هي موحشة كصحراء خالية، حزينة لفقدها "فهيم" بل الثكنة كلها في حداد.

خاطبت نفسي: ما هذا القدر؟ صديقي منذ أعوام لم أره، ويوم أن اجتمعنا ينتقل إلى الرفيق الأعلى.

جمعت ثيابه ولوازمه في حقيبته السوداء وبصعوبة أغلقتها، إذ كانت ممتلئة عن أخرها، حتى إنني كنت أخشى أن تتمزق.

وفي الغد تهيأت فرقة من الجنود للذهاب إلى مقر سكن الشهيد، صعدوا إلى الشاحنة وهم يصرخون بأعلى صوتهم: نقسم لك يا حضرة الملازم أننا سوف نثأر لك ونقتل منهم مائة وعن قريب.

اقتربت شاحنة أخرى من مخزن الإعاشة، وملأها الجنود بالخضر والفواكه واللحم، كما وضعت أغراض الشهيد ولوازمه بعناية، ثم اتجه الجميع نحو المستشفى لأخذ الجثة في سيارة الإسعاف لينطلق الموكب نحو المنطقة التي انتشر فيها الخبر انتشار النار في الهشيم، حيث اجتمع مئات من المشيعين أمام منزل الضحية.

رفع الجنود التابوت المشمع من سيارة الإسعاف، وقاموا بإدخاله إلى بيت والدته لإلقاء النظرة الأخيرة عليه.

لأول مرة أرى عساكرا وجنودا يبكون، وأنا الذي طالما اعتقدت من قبل أن العساكر لا تبكي، وأن قلوبهم من الحديد، وأنهم يأكلون

الأفاعي والحيات، ويسبحون في بحيرات من دماء، يسيرون على الزجاج، لا يهابون ولا يخافون المخاطر.

عرفت أمه لشرودها، واجتماع كل النسوة حولها يواسونها، وهي تزغرد بحرقة، تزغرد وتبكي بكاء شديدا، والنسوة يمسكنها خشية أن تقع.

كانت ترتدي خمارا أسودا، أما أخت الشهيد الوحيدة فلم تستطع أن تمسك روحها، وقفزت فوق التابوت تندب حضها، وتصرخ بأعلى صوتها، أريد أن أرى وجه أخي. بينما زوجها يهدئ من روعها ويقول: وحدي الله يا سعاد، وحدي الله، إنه شهيد الوطن، إنه حبيب الله.

صرخت: أريد أن أرى أخي، افتحوا هذا التابوت اللعين. لماذا قمتم بتشميعه؟

مرت فترة عصيبة ونحن في بهو هذه الدار نقف على أعصابنا، ولم ينقذنا من هذا الموقف الحزين إلا صوت آذان الظهر.

لما سمع الأهالي صوت الآذان وقفوا واتجهوا جميعا نحو المسجد، فحمل الجنود التابوت إلى المسجد للصلاة، ثم إلى المقبرة بعد أن أطلق الجنود الرصاص ونزعوا عن التابوت العلم وتسليمه للوالدة.

في المساء عدنا إلى الثكنة، أخبرني القبطان أنه تم الثأر لصديقي، بعد عملية تمشيط واسعة النطاق لهذه المنطقة، أسفرت عن القضاء على تسعة إرهابيين من بينهم "عيسى"، و"سعيد الأعرج". كما تم تحرير الرهينة "دنيا" وتكفلت مجموعة من الجنود بإعادتها إلى منزلها بسيرتا.

بقيت في الغرفة لوحدي، مع بعض الصور الخاصة بالشهيد، سريره الفارغ المرتب، خزانته مفتوحة على مصرعيها، لقد اعتنى جيدا بتغليفها من الداخل ومن الخارج كما عهدته أيام الجامعة، أما ثيابه ولوازمه العسكرية فقد أخذها مسؤول المخزن.

اقتربت من خزانة الشهيد، ووضعت يدي على درجها، فإذا كراسة وضعت بعناية وسط الدرج الذي غلف بعناية. أخذت هذه الكراسة وقرأت في صفحتها الأولى: الذاكرة الميتة.

هل هي مذكرات فهيم؟

كتب تحت العنوان: قرأت ذات يوم قصة أعجبي أسلوب الكاتب الذي كان يمدح بطلها، حتى تخيلت نفسي أنه يتكلم عني. أوصاف الشاب هي نفس أوصافي، وحياته الدراسية والأسرية هي هي، غير أنه كان يتميز عني بأنه يدون كل الأحداث التي تقع له في مفكرة.

فقلت في نفسي: لماذا لا تكون لي مفكرة مثل توأمي هذا؟

الأحداث التي وقعت لي أنا كذلك مهمة وينبغي أن أدونها. نعم... ربما لا تهم أحدا، لكن هي كل شيء بالنسبة لي، هي ذاكرتي الميتة، عندما أموت تبقى للخلود وللأجيال القادمة.

(05)

أفتتح هذه المذكرات بالصلاة والسلام على رسول الله، وأنا في غرفتي بالحي الجامعي، هذا الحي الذي بني خارج مدينة المعجزات السبع "سيرتا"، يقال بأن هذه المدينة في يوم من الأيام كان لها سبع جسور، وسبع كهوف، وسبع رحبات، غير أنني لا أعرف إلا رحبة لجمال، التي كنت أقتني منها الكتب القديمة، حيث يوجد شاب تخرج من معهد الآداب مولع بالقراءة، مولع بالكتب يشتري المجلدات القديمة يلتهمها ثم يتاجر بها، هذا الشاب الذي لا يتغيب عن أي ندوة أو محاضرة في مقرات الثقافة كدار الشباب والمركز الثقافي أو الجامعة.

تعجبني في هذا الشاب صراحته وشجاعته، فهو لا يحضر لأجل الحضور، بل لا بد من أن يدلي بدلوه في أي موضوع، يتكلم ويسأل ويناقش. سألته ذات يوم وقد توطدت العلاقة بيننا: لماذا لا تصلي صلاة الجمعة؟

قال: بكل صراحة لأنني علماني.

أعود لأقول: إنني في الحي الجامعي، والحقيقة أن هذا الحي لا تظهر فيه حياة، يغرق في أكوام من النفايات والفوضى العارمة، تزين ساحاته أشجار هي أقرب إلى الأشواك في قبحها، ناهيك عن مطعمها والنادي الذي جعله بعض الطلبة مرحاضا عموميا.

في أوقات كثيرة أتساءل: لماذا بني هذا الحي في هذا المكان بالتحديد؟

غرفتي منذ أربع سنوات وهي باسمي، اخترتها انفرادية وندمت أشد الندم على ذلك، لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، هي أشبه ما يكون بالزنزانة، موحشة مظلمة، كل مصابيح رواق هذه العمارة لا تشتعل، لذلك كنت دائما أستعين بشمعة عند الذهاب إلى المرحاض.

تكدست القاذورات في هذه المراحيض حتى أصبحت رائحتها النتنة تنبعث على بعد أميال، غرفتي في الدور الأول، أجمل شيء فيها أنها تطل على البساتين، حيث يمكن مراقبة الفلاحين الذين ينهمكون في جني الثمار والعمل طول النهار.

في هذه البساتين توجد عين ماؤها صافي زلال. يأتي إليها فتيات قرويات وفلاحات يملأن جرارهن وقربهن. تربطني علاقة وطيدة بالفلاحات فهن يعرفنني وأنا أعرفهن، منذ أربع سنوات وأنا أقف أمامهم كالصنم، عبر شباك غرفتي.

عندما أشعر بالوحدة أفتح الشباك وأنظر إلى الطبيعة، إلى أشجار التفاح والبرتقال، وأتلصص إلى حديثهن وأصواتهن تملأ المكان وتتزاوج مع رقرقة مياه الجدول.

حديثهن الشيء الوحيد الذي أستأنس به، يتحدثن عن تجاربهن في الحياة، غير أنهن أحيانا يتكلمن بالألغاز، فلا أفهم حديثهن، وأحيانا يسررن إلى بعضهن أسرارا، وهذا ما دعاني لأن أقتني من بعض محلات سيرتا ما يسمى — بالجاسوسة - وهي جهاز يستعمل للتصنت، لأعرف ما يجري من حولي.

منذ أسبوع وأنا في هذه الغرفة، لا أخرج منها إلا لتناول وجبة الغداء أو العشاء، اقتربت الامتحانات وقد فاتني الكثير من الدروس والمحاضرات، كما أصابني الملل الشديد وروتين غير معهود.

أريد الذهاب إلى المقهى، الذهاب إلى المسبح إلى الملعب، غير أنني مجبر، مربوط بسلسلة.

يا له من ملل! أي حياة هذه! أي دنيا أعيشها! إنه العذاب.

هذه الغرفة أكيد نحس، فمنذ خمس سنوات بالتحديد انفجرت قارورة غاز بوتان صغيرة في وجه طالب، لما هم أن يوصلها بفرن لتسخين وجبة الفطور في رمضان، فمات لحظتها.

أساطير كثيرة رويت حول هذه الغرفة الملعونة منها: أن طالبا أوهم زملاءه بأنه شجاع، سكنها فرأى بأم عينيه الكراسي والكراريس والكتب تسبح في فضاء الغرفة، ثم التصقت بالسقف، فبدأ يقرأ سورة الفاتحة وآية الكرسي، فانقلب رأسه إلى الأسفل ورجليه إلى الأعلى.

وآخر أكثر شجاعة من الأول، كان ينام قبل غروب الشمس فيستيقظ في منتصف الليل ليجد نفسه مرميا في دورة المياه وسط القاذورات.

أما أنا لا أخاف الأشباح ولا أهابها، فهي في نظري مخلوقات ضعيفة مثلنا تماما.

ذات مرة وسوس لي شبح "نوال" وطلبني للزواج، ولما رفضت الارتباط بمخلوقات غير مرئية، أغراني بالانتحار، ربطت الحبل في سقف الغرفة، وصعدت فوق الكرسي، ووضعت الحبل حول رقبتي، وطلبت المغفرة من الله تعالى، وإذ بأصوات القرويات يصرخن تنبيها بوصولهن.

في ذلك اليوم جاءت معهن "دنيا"، لأول مرة، أعلم أنها تسكن في هذا الحي.

و"دنيا" تدرس معي في الجامعة، بيضاء ترتدي حجابا وخمارا أسودا في أغلب الأوقات، وهي ليست لا بالطويلة ولا القصيرة، عيناها واسعتان كعيون المها، وهي أجمل ما رأيت في هذه الدنيا. في أغلب الأحيان تضع مساحيق خفيفة على وجهها، وفي اعتقادي أنها ليست في حاجة إلى هذه المساحيق أصلا لأن جمالها طبيعي.

كلما حاولت أن أتكلم معها وقف جدار بيني وبينها من الجلال والرهبة، ولعل هذا الجدار هو روح وطيف خطيبتي "نوال".

اسمها "دنيا" هذا الاسم الذي نقشته في جدران وسقف وباب وشباك هذه الزنزانة اللعينة، وهذا ما أغضب روح "نوال".

ما أشبه "دنيا" بـ "نوال" فهي الأنيس في الوحدة، وهي الأمل في هذه الحياة.

نزعت الحبل من رقبتي وقلت لمن أترك "دنيا"، أخشى أنها تبادلني الشعور نفسه وتكتم الأمر علي، بل إنني أجزم أنها تحبني، إشارات كثيرة أرسلتها لي من تلميحات باليد والعين وبالجسد إلى حركات وأصوات.

ذات يوم خرجت وراءها بعد انتهاء الدوام، وكنت أعتقد أنها سوف تذهب إلى الحي الجامعي، غير أنها التفتت نحوي وابتسمت، وسحبت صديقتها نحو المحلات القريبة من الجامعة، سارت بضع أمتار فرسمت أجمل منظر رأيته في حياتي لن أنساه ما حييت.

اقتربت من شباك الغرفة وقلت: يا رب!! لأول مرة أراها بلباسها التقليدي، ترتدي جبة وتنتعل خفا رقيقا، وتضع خمارا فوق رأسها يكشف نصف شعرها.

قالت إحداهن وهي تخاطب "دنيا": مبارك عليك.

دنيا: ماذا؟

هذه الأثواب... ما شاء الله عليك.

ضحكت دنيا ضحكة دلال وخاطبتها: في الأسبوع الماضي ذهبت إلى وسط المدينة للتسوق، ولما نزلت من حافلة الطلبة وأردت الذهاب إلى بعض المحلات لشراء ملابس الشتاء، سار خلفي شاب وبدأ يموء كالقطط فلم التفت إليه، ثم بدأ يزقزق كالعصافير فلم التفت إليه، ولما أكثر من مضايقتي جمعت قواي واستدرت نحوه لأوبخه، فإذ هو معاق على كرسي متحرك.

قلت له: تعاكسني وأنت لا تقوى على الحركة.

أجابني بسؤال: وأين المشكل؟

قلت: أنت المشكل في حد ذاته.

بدأت وأنا سجين في هذه الزنزانة أضحك ضحكا عاليا، حتى سمعت الفتيات ضحكتي وتساءلت بعضهن عن مكان هذا الضحك.

غير أنني سمعت إحداهن تقول: لعل ذلك المعتوه سمع حديثنا.

(06)

أحسست بالجوع، وأنا أكره الوقوف في طابور المطعم الجامعي لأجل حفنة من "لسان العصفور" وعلبة ياغورت، ومن عادتي أن أترك الظلام يسقط على المنطقة، وأقفز من النافذة إلى بساتين الفلاحين لأجني بعض الفاكهة والخضر، كنت في هذه الفترة كالعصفور الذي لا يحرث ولا يزرع غير أنه يجني ثماره متى شاء.

الفلاحون يحسنون الاعتناء بالأشجار، فهي عالية جدا، أتمنى من كل قلبي أن أصعد إلى أعلى شجرة وسط هذه البساتين، ثم أسقط وتنتهي حياتي.

هذه الدنيا مملة حقا، حياة غير منطقية على الإطلاق، إذ كيف تفسر سبعة من أثرياء العالم يملكون ما يملكه نصف سكان الكرة الأرضية. أين العدل هنا؟ كيف تفسر هذه الحروب ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين في كل من: القدس، الصومال، كشمير، البوسنة والهرسك؟ بل هذه الحرب القذرة في الجزائر، حيث يقتل الأخ أخاه.

جمعت كيسا من التفاح، وعدت إلى غرفتي، شغّلت المذياع لأقتل هذا الصمت الذي أطن أذناي، غير أنني لم أسمع إلا شوشرة،

وحدثت نفسي: بأن أحمل هذه الخردة (المذياع) وأضربها عرض الحائط، ثم لعنت ذلك الطالب الذي ابتاعني إياه بثمن باهض. حاولت رفع المستقبل الهوائي، إلا أن الضجيج يملأ المكان، وبالكاد أسمع صوت المذيع وهو يقدم حصة حول الحرب في البوسنة.

لازال حبل المشنقة مربوط بالسقف، ولا زالت فكرة الانتحار تراودني ولا زال شبح "نوال" يغريني بعالم أروع، أصعد فوق الكرسي وأضع هذا الحبل اللعين حول رقبتي، ثم أقفز من المقعد وتأتي هي لمساعدتي، تأخذني إلى عالم الحرية، عالم جميل بلا طنين ولا شوشرة، حياة اللذة بلا ألم، ثانية واحدة وأكون عندها.

صرخت: ولكن هل أنا حي؟

فعاد صدى صوتي: أنا حي.

صرخت: من أنا؟

عاد الصوت مرة أخرى: أنا.

وقفت وسط الغرفة وضربت رأسي على الباب الخشبي ضربات متتالية، أردت أن أفجر هذا الرأس المثقل بالهموم والآلام، أصبت بدوار وكاد يغمى علي لولا أنني اقتربت من الطاولة وأخذت قارورة ماء

وسكبتها على رأسي، تناولت ثلاث تفاحات حمراء ناضجة حلوة، فعاد لي صوابي.

من أنا؟ أنا دودة، أنا حشرة فوق هذه الأرض.

أنا منافق، أبدو للناس أنني تقي، أنني نقي أنني ذو لحية كثيفة، أنني داعية... ماذا أفعل؟ إنني أجني محصول الفلاحين، أسرق مجهودهم السنوي، أحاول قتل الروح التي حرمها الله في كتابه.

تبا لهذه اللحية الخداعة وهذه الثياب البالية.

في الغد استيقظت باكرا وقمت بحلق لحيتي ثم أخذت محفظتي واتجهت نحو المعهد للدراسة.

من عادة الطلبة انتظار الأستاذ خارج القسم، فوقفت مع بعض أصحاب الوجوه العابسة والمكفهرة، الذين كانوا يلعنون المناهج والمواد التي أدرجت في المقررات.

قال أحدهم: لكن لماذا ندرس الصوفية؟ بل لماذا ندرس اليهودية والنصرانية مع أنهم كفرة؟

يريدون تشويش عقولنا.

وقفت مع هؤلاء الوجوه وليس لي بد من ذلك، إذ لم يكن من لائق أن أقف وحدي، خاصة وأن "دنيا" تراقب تحركاتي، وكأنها تريد أن تتأكد من هويتي بعد حلق لحيتي.

التفت إلى الحائط هروبا من نظرتها، فوجدت إعلانا لمناقشة دكتوراه، تظاهرت بأنني أقرأ هذا الإعلان، وأنني مهتم به أشد الاهتمام، فإذا هو لأستاذة علم الاجتماع التي تريد مناقشة رسالة الدكتوراه، هذه الأستاذة ذات المزاج العصبي السيئ جدا. لا زالت ذكرياتها عالقة في ذهني.

كانت تمارس سياسة التحطيم وإذلال الطلبة بمعنى الكلمة. تمارس حربا على الفصل، والآن ها هي قد أنهت رسالتها التي عنونتها بـ " عزوف الشباب الجزائري عن الزواج "وتود مناقشتها، وأتمنى من كل قلبي أن أحضر هذه المناقشة لأرى بأم عيني كيف يمرغ المناقشون أنف هذه النكرة المتعجرفة، وأتمنى من قلبي أن يقول لها رئيس الجلسة: هذه الرسالة لا تصلح إلا لشيء واحد فقط، أن يباع فيها الفول" مالح وبنين".

هذه الأستاذة التي كلفت "دنيا" ذات يوم بإنجاز بحث حول "عزوف الشباب عن الزواج "لتضيفه عنصرا في مذكرتها، ولما حان موعد إلقاء بحثها، صعدت "دنيا" إلى السبورة وكتبت خطة البحث، ووضعت البحث فوق المكتب، ثم جلست لتلقي بحثها، فوقف مجموعة من الطلبة الذكور الذين كانوا يجلسون في مقدمة الفصل وقالوا بصوت واحد: ما هذه البدعة؟ كيف لهذه أن تلقي بحثها أمامنا؟ أليس صوت المرأة عورة؟

خرج "عيسى" و"سعيد الأعور" رفقة مجموعة من الطلبة، وكتبوا عريضة يستنكرون فيها هذا التصرف وطلبوا من الإدارة تغيير هذه الأستاذة الوقحة، بعد أن شرحوا الأسباب التي دفعتهم لهذا الأمر، ثم وقّعوا أسفل الورقة.

أما أنا بقيت مع المخلفين في القسم، أستمع إلى "عزوف الشباب عن الزواج"، لأنني أعتقد أن الأمر لم يصل إلى هذا الحد.

غير أن الإدارة رفضت هذا الطلب، بحجة أنهم لا يمثلون الأغلبية، إذ الفصل به أربعون طالبا بينما هم لا يتعدون ثمانية.

في الحي الجامعي وبعد صلاة المغرب التقيت بـ"عيسى"، طلب مني الجلوس لمناقشة بعض الأمور التي تخص الطلبة، كنت الوحيد الذي ليس له تيار يتبعه، وبالتالي ليس لي أصدقاء صادقون.

وكنت أعلم أن غايته هي جمع أكثر عدد من الإمضاءات، لتغيير الأستاذة التي جاءت بهذه البدعة، وحتى أهرب من هذا الموقف ادعيت أن لي بعض الأشغال ووعدته بأننا سوف نتكلم في الأمر مستقبلا.

بعد العشاء، وأنا مستلقي على الفراش أحاور بعض الأشباح التي قمت بتدجينها، أسألهم عن الطالب الذي انفجرت فيه قارورة الغاز، هل هذه الوفاة بقضاء الله أم بقدره؟

دق "سعيد الأعرج" الباب وصرخ: "فهيم" افتح الباب.

قلت: من؟

قال: سعيد.

هذا الطالب بالذات كنت أتحاشى الجلوس معه، لأن رائحته نتنة جدا، وهو مصاب بمرض التبول اللاإرادي ويخفي هذا الأمر على الجميع، غير أنني اكتشفت أمره لما دخلت إلى غرفته ووجدت الدواء على طاولته.

فتحت الباب ووجدته قد أحضر معه علبة عصير، يريد أن يقدمها لي مقابل أن أمضي لائحة الشكوى ضد الأستاذة.

جلس على كرسي ثم التفت إلي، وبصوت واثق قال: الإخوة أرسلوني إليك، وهم في ثقة تامة بأنك معهم، يريدون منك أن تكون مع حزب الله ولا تكن مع حزب الشيطان والطاغوت، لقد لاحظوا ميلك إلى جماعة ذاك الشيطان "موسى لهودي".

و"موسى" بين قوسين هو أستاذ اللغة العربية بالثانوية القريبة من الحي الجامعي، فر من قريته القريبة من بومرداس، هربا من ويلات الإرهاب بعد أن اتهمته مجموعة إرهابية بسرقة الأموال التي تركوها وديعة في منزل والده. وأعاد التسجيل بالجامعة ليتحصل على الإقامة بالحي الجامعي. في كل سنة يأتي للتسجيل في الجامعة ليستفيد من السكن.

والمعروف عنه لدى العام والخاص أنه يفتح غرفته للقمار والميسر، وسمعت من بعض الطلبة أنه خسر أموالا طائلة في الأشهر الماضية.

"لهودي" من عشاق اللباس الكلاسيكي، ورغم أنه أمرد إلا أنه كل صباح يحلق ذقنه اعتقادا منه أن لحيته سوف تنمو في يوم من الأيام.

"الأعرج" يقول: بأن حزب "لهودي" هو حزب الشيطان، وأنا مع حزب الشيطان.

قلت: ولكن كيف عرفت بأنني مع "لهودي"؟ هل لاحظت أنني من رواده؟

قال: لا، ولكن إما أن تكون معنا أو ضدنا.

قلت: كن على علم بأنني لست معك ولست معه، أنا مع نفسي. لما يئس من إقناعي، دفع لي علبة العصير ثم انصرف.

درسنا ذات يوم الشعر الجاهلي وبالتحديد شعر الصعاليك والشنفرى، فأطلق علينا "عيسى" و"سعيد الأعرج" اسم الصعاليك. فإذا تحدثا عن المخلفين الذين لم يمضوا اللائحة يقولان: هؤلاء الصعاليك.

فتقول هذه العصبة: نعم نحن صعاليك ولكن شعراء.

اشترى "عيسى" كتابا عنوانه: "كيف تكتب رسالة مثالية في مختلف الظروف" ولم أنتبه لنواياه السيئة، إذ أنه كتب رسالة غرامية لـ "دنيا"، واعتقد أن بها كلاما غير لائق، ومررها إليّ ونحن في المدرج،

وطلب مني أن أسلمها إلى التي ورائي، وبحسن نية أعطيت الرسالة إلى "دنيا".

كان يوما أغبرا، فقد اشتكتني لجميع الأساتذة ووصلت هذه الرسالة إلى مدير الجامعة الذي أراد رفعها إلى المجلس التأديبي.

ذهبت إلى المدير وكانت لي معه علاقة احترام، وأقسمت له أنني لم اكتبها ولا أعرف ما بداخلها، وقد شفع لي أن الخط ليس خطي ولا الإمضاء إمضائي.

(07)

عدت إلى غرفتي بالحي الجامعي، وفي قلبي مضاضة مما جرى، كيف لهذا الكلب أن يقوم بهذا الفعل الغبي؟

شغّلت الراديو لاستمع للأخبار. لازال المذيع يتكلم عن المجازر التي اقترفت في حق البوسنة والهرسك، انتهاك حقوق الإنسان، الاغتصاب، مئات المسلمين يقتلون يوميا، حرب ضد الإسلام، التطهير العرقي. لم يكمل المذيع حديثه حتى دق الباب نظرت من ثقب الباب فإذا بعيسى في الخارج يرتجف من البرد.

قلت في نفسي: سحقا... ماذا يريد في هذه الساعة؟

فتحت الباب فبدأ يبكي سألته: ما بك؟

قال: لقد أخطأت في حقك.

اعلم أنني أحب "دنيا" وأريد الزواج بها، وقد كتبت الرّسالة بنفسي، كنت أعتقد أنها سوف تعرف أنني أنا المرسل، لأنني لمحت لها

مرات عديدة. غير أنني لما رأيت ما وقع لك، خشيت على نفسي. فأنا أطلب منك العفو والمسامحة.

قلت: لقد سويت الأمر مع الإدارة والأساتذة، واقتنع الجميع بأن الخط ليس خطي ولا الإمضاء إمضائي.

في هذا الوقت بالتحديد أذن المؤذن لصلاة العشاء.

قال: لنذهب للمسجد ثم يفعل الله ما يشاء، لما وصلنا إلى المسجد اقترب "سعيد الأعرج" من المحراب ليؤم المصلين.

ولما أنهى الصلاة التفت للطلبة وكلهم من حزبه، وطلب منهم الانتظار لأن هناك كلمة من أحد الدكاترة الأفاضل.

اقترب مني بعد أن أفسد عليّ تسبيحي وقال: أريد أن أسألك سؤالا خاصا إن أمكن.

- سؤال خاص؟
- نعم.
- تفضل

- في عامك الأول بالجامعة رأيتك ملتحيا، ترتدي القميص، أما الآن تغيرت كثيرا.

- قلت: لقد كبرت.

- ما هذا الهراء!

تقدم الدكتور من المنبر، وجلس على كرسي واتجه نحو المصلين وبدأ حديثه، حديث الساعة "البوسنة والهرسك".

بدأ درسه قائلا: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أما بعد:

قال تعال: **﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة 217**

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضُه بعضًا وشبَّك بين أصابعه» متفق عليه.

في يوم **29** فبراير **1992**م، خرج المسلمون في البوسنة لأجل الاستفتاء للانفصال عن صربيا؛ أخذ الصرب المسيحيون أعداء الإسلام يتحرشون بمسلمي البوسنة، فلما قتل أحدهم هجم الجيش الصربي على البوسنة. يريدون توقيف الاستفتاء، مبتغاهم عدم استقلال البوسنة عن الصرب، قاموا بتقتيل المسلمين في كل مكان من البوسنة والهرسك.

ولأننا إخوة في الإسلام فنحن ندعم إخواننا في البوسنة، بالنفس والنفيس، فمن استطاع أن يغير هذا المنكر بيده فليغيره، ومن كانت له القدرة للجهاد فأنا أضمن له الذهاب إلى هناك بدون أن يدفع أي سنتيم، وسوف أعمل جاهدا لوصوله إلى البوسنة.

انتهى الدّرس وتطوع بعض الشباب للجهاد وللذهاب إلى هناك، فبدأ الشيخ يدون أسماءهم. وبصعوبة تملصت من "سعيد الأعرج" وما إن وصلت إلى الباب الخارجي للمسجد حتى أمسك الدكتور يدي وقال: أريد أن أطلب منك طلبا صغيرا.

- ماذا تريد؟

- نريد غرفتك، فقد أخبرنا بعض الإخوة أن غرفتك انفرادية، ومعي ضيوف ليس لهم مكان يبيتون فيه.

هل يمكن أن تتنازل عنها لليلة واحدة؟

-: وأنا أين أذهب؟

-: هناك غرف كثيرة بالحي.

-: متأسف يا دكتور، لا أستطيع النوم إلا في غرفتي.

فيما بعد علمت من بعض المخلوقات أنهم يريدون الاجتماع بالطلبة الذين أرادوا الذهاب إلى البوسة والهرسك مع بعض الأجنحة المتطرفة بالحي، عدت إلى زنزانتي ورميت جسدي على السرير كالميت.

في الصباح الباكر استيقظت على صيحات طلبة الحي وصراخهم، كنت متعبا جدا وبصعوبة وقفت أمام النافذة المطلة على البساتين فإذا الدنيا كلها بيضاء، وإذا بالأرض مغطاة بالثلوج، فتحت باب الغرفة واتجهت إلى نافذة من نوافذ الرواق المطلة على ساحة الحي الجامعي، فرأيت كل الطلبة الذين يدرسون معي في الصف في جهة وزعيمهم "عيسى الأعرج" وفي جهة أخرى طلبة الآداب يتزعمهم "موسى لهودي"، والكل يرمي على الكل كرات ثلجية وبعضهم يتعمد وضع الحجارة أو الزجاج في هذه الكرات.

زعيم الطلبة المسلمين يصرخ: الله مولانا ولا مولى لكم. قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

بينما "لهودي" في الجهة الأخرى يصرخ: أعلوا هبل، العزى لنا ولا عزى لكم.

أردت الذهاب إلى المطعم للإفطار، غير أنني سمعت المذياع يدق ويعلن موعد موجز السابعة، أسرعت في حمل محفظتي واتجهت إلى حافلات النقل دون إفطار.

بصعوبة خرجت هذه الحافلة من وسط أكوام الثلوج، بينما الكاسحات أمامنا تفتح الطريق تدفع الثلوج نحو اليمين والشمال، وما إن وصلنا منتصف الطريق، حتى أوقفت الشرطة الحافلة، وطلبت من الجميع استظهار بطاقة الهوية وبطاقة الطالب، وبعد نصف ساعة من التوقف تم حجز مجموعة من الطلبة المشبوهين في تعاملهم مع الإرهاب.

- جلس "عيسى" بالقرب مني، وهو يسر إلى صديقه الأعرج قائلا: أحمل في محفظتي مجموعة من المناشير التحريضية زودني بها الدكتور المحاضر البارحة.

لما وصلنا إلى المعهد، فوجئنا بالمناشير التحريضية مرمية وسط الأقسام، وبعضها معلق على لوحة الإعلانات، فأسرعت في الخروج من الجامعة.

بدأت الشرطة السرية تجمع هذه الأوراق المبعثرة هنا وهناك وأغلقت باب المعهد. بقيت في الخارج رفقة مجموعة كبيرة من الطلبة والطالبات.

كعادتها "دنيا" جاءت متأخرة، وقفت في المكان الذي رأيتها فيه منذ أربع سنوات، بالقرب من شجرة الليمون، مكانها المفضل، تجمّعت حولها الطالبات كأنها مغناطيس، فهي تعرف كيف تجعل الكل يدور في فلكها.

توسطت الطالبات ونظرت إليّ نظرة ثاقبة.

قالت صديقتها "توأم الروح": أهذا اللعين هو الذي أرسل لك الرسالة!

لم تعلق "دنيا" وغيرت الحديث قائلة: بما أنه لا دراسة في هذا اليوم، سوف نذهب إلى وسط البلاد، ونشتري بعض الأثواب للتربص.

قلت بيني وبين نفسي: ياه... التربص... سقط من بالي.

لقد أعلنت الإدارة عن فتح المجال للتربص في مجال التعليم الثانوي، غير أنني لم أقدم الطلب.

ولحسن الحظ مر بالقرب مني مدير المعهد، وتوقف أمام باب الجامعة المغلق، وبدأ يسأل عما حدث.

اقتربت منه وأجبته: وجدت الشرطة السرية مناشيرا تحريضية تدعوا للجهاد. ولما كان المدير يعرفني أشد المعرفة، سألته عن شروط التربص.

قال: ليست هناك شروط محددة، يكفي طلب خطي، لأن هذا التربص ليس إجباريا.

قام بإخراج ورقة من محفظته، بها قائمة المتربصين الذين لهم الرغبة في ذلك وقال: هؤلاء الذين وضعوا طلبات التربص.

نظرت إلى القائمة، وبالصدفة سقطت عيني على اسم "دنيا" وأمامها ثانوية الحي الجامعي.

قلت: لحظة واحدة يا أستاذ سوف أعطيك الطلب، انعزلت في زاوية من زوايا ساحة الحرم الجامعي، وأخرجت قلما وورقة وكتبت له

الطلب، وكانت حجتي في اختيار ثانوية الحي الجامعي أنني أسكن بعيدا عن مدينتي لذلك فإني أنوي التربص هنا.

شكرت الأستاذ على تعاونه وتفهمه، بعدها عدت أدراجي، نظرت إلى مكان وقوف "دنيا" فإذا بالمكان خالي تماما، اختفت كأنها شبح.

قلت في نفسي: لقد أعطتني كلمة السر، قالت سوف نذهب إلى وسط البلاد.

خرجت من الجامعة، ركبت حافلة النقل واتجهت إلى وسط البلاد، ووقفت أمام ساحة البريد المركزي واعتليت كرسيا حديديا ملتصقا بالأرض يتوسط الساحة، ونظرت إلى وجوه المارة الذين يتجاوز عددهم الألف، وبقدرة القدير سقطت عيني في عينها وكانت في وسط الجموع. هناك خيط رقيق يربطنا.

قلت في نفسي: "والله لن أنس هذه اللحظة ما حييت".

ابتسمت "دنيا" لصديقتها "توأم الروح" وتمتمت في أذنها: ألم أقل لك أنه سوف يلحق بنا.

أمسكت "دنيا" بيد صديقتها ثم دخلتا إلى محل الأقمشة.

أما أنا فدخلت إلى مكتبة محاذية للمحل، وكنت قد أخذت عهدا على نفسي أن أشتري كتاب إخوان الصفا، فسألت المكتبي عن ثمنه، ثم طلبت منه أن يعطيني الكتاب لأرى طبعته.

ناولته النقود ثم عدت إلى محل الأقمشة فلم أجدها هناك، نظرت في كل الاتجاهات فلم أجدها، اختفت كأنها سراب.

(08)

سلمني مدير المعهد رخصة التربص، وفي صباح الغد ذهبت إلى الثانوية القريبة من الحي الجامعي وكنت أعلم مسبقا أنني سوف أجد "دنيا" هناك.

كم مرة سرت أمام هذه الثانوية، وأسأل نفسي عن الجو فيها، سمعت عنها قصصا كثيرة. بعض الطلبة الذين درسوا فيها، أعلموني أن هناك مشاكسين يدخلون إلى الثانوية ومحافظهم مملوءة بالبيض والطماطم والمفرقعات، يرمونها على الأساتذة والمراقبين، والبعض الآخر يأتي بالضفادع والحشرات ويطلقونها في القسم بالقرب من مكتب الأستاذ كي لا يتفطن إليهم أحد، وينتظرون ردة فعل الأساتذة.

لم يخب ظني، هي أمامي عند مدير الثانوية.

كان المدير يجلس خلف مكتبه الفخم على كرسي فوقه فروة خروف، له شارب طويل، يرتدي قميصا أبيضا، بطنه منتفخة كأنه حامل بتوأم في شهره التاسع، أوراق كثيرة أمامه، أقلام ومحفظة، وأما خلفه فتوجد مكتبة عريضة مليئة بالجريدة الرسمية.

سلمت عليه وقبل أن يسألني، وضعت فوق مكتبه رخصة التربص. سحب النظارة عن عينيه ثم قال: هل تدرسان معا؟

تركت إجابة السؤال لـ" دنيا "، غير أنها تظاهرت أن السؤال لا يعنيها.

قلت: نعم ندرس معا في نفس القسم.

قال المدير: لقد أخبرتني زميلتك أنها جارة للثانوية، وأنت؟

قلت: أنا كذلك جار للثانوية، أسكن في الحي الجامعي.

بدأ المدير يشرح لنا صعوبة التعامل مع التلاميذ، الاكتظاظ، المناهج، غيابات الأساتذة، إلى غير ذلك من المشاكل التي يواجهها المدير في تسييره للمؤسسة.

أرسل المدير إلى الناظر يسأله عن أستاذ العلوم الإسلامية، فقال هذا الأخير: إنه غائب وقد نابه في تقديم الدروس أستاذ اللغة العربية.

وقف المدير وقال: اتبعاني، سار أمامنا، اتجهنا إلى قسم أستاذ اللغة العربية، دق الباب، فإذا بـ "موسي لهودي" يظهر.

قلت في نفسي: تبا لحزب الشيطان؟

قال المدير وهو يخاطب "موسي": طالبان يريدان التربص، هل يمكنك التكفل بهما؟

قال: بكل تأكيد سيدي المدير.

طلب منا هذا الدخول إلى القسم، وقدم لنا مقعدين فجلسنا في الخلف وأكمل درسه.

نظرت إلى "دنيا " ولأول مرة تخاطبني قائلة: أتمنى أن أجد عملا مناسبا بعد التخرج.

لم أصدق نفسي، هل هي تكلمني؟ هل هي تخاطبني؟ كنت أظن أنها لن تسامحني على تلك الرسالة اللعينة.

قلت: إن شاء الله ستجدين العمل المناسب.

ردت: أريد أن أدرّس في هذه الثانوية فهي قريبة من منزلي.

قلت: كل شيء بقدر.

رائحتها عطرة، ترتدي حجابا جديدا وخمارا أسودا كعادتها، وتضع بعض المساحيق الخفيفة على وجهها.

وأمامي هذا الكلب البدين الذي يكبرني بأكثر من عشر سنوات، والغريب أنه غير متزوج لحد الساعة.

وصفه "عيسى" قائلا: فاجر، سكير، تارك للصلاة، داعر، غرفته في الحي الجامعي وكر للقمار والفسوق.

كنت أتظاهر أمام هذا اللعين أنني أدون مجريات الدرس، ولما أنهى الدرس اتجه للتلاميذ وقال: هل من سؤال؟

قال تلميذ: لم تعرفنا بالضيوف.

هذان أستاذان يخضعان للتكوين، في الغد إن شاء الله سوف يقدم لكم الأستاذ "فهيم" درسا في الميراث.

التفت لـ" دنيا " مستفسرا: هل سمعت ما قال؟

قالت: لا مشكلة، نعم لم ندرس الميراث، لكن بإمكانك أن تراجع الدرس من الكتاب المدرسي وتقوم بإلقائه.

- ولكن ليس لي أي تجربة في التعليم، ثم إنني لم أقدم درسا في حياتي.

- قالت: لا تخف يا صغيري، فأنا أقف أمامك.

- لا تخف يا صغيري!! ماذا تقصد بهذه الجملة؟ عجبت من نفسي كيف فكرت يوما ما في قتل نفسي وأنا مسلم مؤمن بالله.

لما انتهى الدوام، عدت إلى غرفتي وأنا أكاد أطير فرحا، وفي طريقي وجدت "عيسى" أردت أن أقص عليه ما حدث معي.

صاح: منذ الصباح وأنا أبحث عنك.

أجبته: خيرا إن شاء الله.

- هناك أمر أريد أن أستشيرك فيه.

- ما هو؟

- بالأمس ذهبت أنا والوالد إلى بيت "دنيا" القريب من الحي، وطلبت يدها، وافق والدها مبدئيا غير أنها رفضت رفضا قاطعا.

- وقالت: إنني لا أفكر في الارتباط حاليا، أريد أن أعرف إن كان هناك شخص في حياتها.

- أجبته: بإمكانك أن تسألها شخصيا أو تسأل صديقتها "توأم الروح".

لما علمت بأنه يريد الارتباط بها، لم أستطع أن أحكي له ما جرى لي. حدثت نفسي وأنا في طريق العودة إلى الغرفة: هل رفضها لخطبة "عيسى" يعني أن هناك شخصا ما في حياتها، ولكن من هو؟

هل يوجد احتمال أن أكون أنا مثلا؟

وصلت إلى الغرفة، رميت المحفظة فوق الطاولة وتمددت على السرير، ثم وضعت كلتا يدي تحت رأسي ورحت أعيد ذكريات هذا اليوم العظيم في حياتي.

أربع سنوات تدرس معي لم أكلمها مرة واحدة، إنه يوم مميز حقا.

نعم كنت معجبا بها وحاولت أن أعرف اسمها، وعرفته بصعوبة، عرفته في السنة الثانية يوم الامتحان من الفصل الأول بالمدرج الكبير، هذا المدرج الذي يتسع لحوالي مائة طالب، في ذلك اليوم لما أنهت امتحانها وأرادت تسليم ورقة الإجابة، أخذت ورقتي وأسرعت خلفها، والغريب أنني لم أنهي الامتحان بعد، وضعت "دنيا" ورقة الإجابة فوق المكتب، ثم تقدمت للإمضاء فالتصقت عيناي بإمضائها واسمها، فانتبهت إلي وحملقت في وجهي، منذ تلك اللحظة بدأ العذاب.

أذكر ذلك اليوم جيدا، فقد عدت إلى الغرفة وكتبت اسمها في كل مكان فاغتاظت أشباح "نوال" من هذا العمل. وها هي "دنيا" اليوم تقول: لا تخف يا صغيري.

سوف أقدم الدرس غدا، ولا بد من نجاحه وإذلال ذلك لهودي الذي أراد تجربتي واختباري. صحيح أنني لم أدرس الميراث في المعهد، ولكن لحسن الحظ أن لدي خلفية عن الموضوع منذ أيام الثانوية.

ثم إنني وجدت كتابا يحتوي على خريطة التركات والمواريث، تشمل مقدار كل الورثة، فحفظت هذه الخريطة عن ظهر قلب. وقدمت درسي على أحسن ما يرام، انبهرت "دنيا" بهذا التقديم.

لما خرج التلاميذ تقدم إليّ "لهودي" وقال: والله لقد أبدعت في درسك هذا، ولو قدمته أنا لما كان في هذا المستوى، من أين أتتك كل هذه الشجاعة وهذا العلم؟

استأذنت "دنيا" للخروج، والذهاب إلى المدير لإمضاء بعض الأوراق الخاصة بالتربص.

فجلست مع اللعين، وبدأ يغمرني بأسئلة: ماذا تعرف عن "دنيا"؟ أريد أن أعرف كل شيء عنها.

أخبرته عن كل ما أعرفه بسذاجة. كل الأسئلة التي طرحها علي أجبته عنها، ثم سألته سؤالا واحدا: ولكن لماذا أنت مهتم بها كل هذا الاهتمام؟

سكت قليلا ثم قال: أريد أن أخطبها.

كانت مفاجأة كبيرة بالنسبة إلي، كنت على وشك أن أقول له: هي لي.

كيف لها أن تقبل بهذا الشيخ الطاعن في السن؟ هذا الفاسق والداعر، الذي يضع أسنانا اصطناعية مطاطية.

يستحيل أن تقبل به، البارحة رفضت "عيسى" رغم صغر سنه، كما رفضت من قبله "سعيد الأعرج".

لم أعرف بماذا أرد عليه سوى أن قلت له: بإمكانك الذهاب إلى بيتها.

كنت أشك في جنونه ومجونه والآن تيقنت.

مرت عليّ تلك الليلة كالسلحفاة، أجادل نفسي تارة وأجادل الأشباح تارة أخرى، وأسمع صوتا يكاد يمزق طبل أذني: الدنيا جيفة وطلابها كلاب.

لم يغمض لي جفن، ومن حين لآخر أنظر من النافذة، لعل ذلك السكير يمر من هنا باتجاه بيت " دنيا " فأرميه بحجر ليسقط ميتا.

في صباح اليوم الموالي لم أستيقظ باكرا، كنت في حالة يرثى لها، غير مستعد لإنهاء هذا التربص.

حاورت نفسي قائلا: بما أن هذا التربص غير إجباري، فلماذا نجهد أنفسنا كل هذا الجهد؟

إلا أنني تذكرت ما قاله "لهودي" بخصوص خطبته، أحببت التطلع لمجريات ما حدث له. ارتديت ملابسي وأسرعت إلى الثانوية، فوجدت الجميع في أقسامهم، التقيت في طريقي بالناظر فسألت عن ذلك اللعين قال: قسم الأستاذ "موسى" هناك.

ذهبت إليه فوجدت الباب مفتوحا، دخلت وإذ بـ "دنيا" تجلس وراء المكتب وتلقي درسها واللعين يقف بالقرب منها.

كانت تلك الساعة من أطول ساعات عمري. لم أحاول إخراج أي شيء ولم أكتب أي حرف. انتظرت نهاية الدرس لأسأل عما جري.

دق الجرس معلنا عن نهاية الحصة الأولى، فخرج التلاميذ وتقدمت من "دنيا" وهنأتها على هذه الشجاعة في تقديم الدرس، فشكرتني بدورها لحضوري، ثم جمعت أوراق درسها وخرجت، أردت اللحاق بها فأمسكني ذلك السكير وقال: تعال سوف أحكي لك ما جري لي البارحة.

لقد وافقت، لقد قبلت الارتباط بلا شروط، قبلت بأن أكون زوجا لها، الحمد لله.

كدت أسقط، حتى إنني أمسكت الباب الذي أقف بالقرب منه. سمعت طنينا في أذني ولساني يردد مقولة حفظتها منذ صغري: الحياة أمل مع اللقاء وألم مع الفراق، وبدأ لساني يكررها مرة ومرتين وثلاث: الحياة أمل في اللقاء وألم في الفراق.

بماذا تفسرين قولك: "لا تخف يا صغيري" هل هناك تفسير آخر غير التفسير المتعارف عليه؟

غبت عن الوعي مدة من الزمن، تفطن "موسى" لشرودي، ثم سألني: ما بك؟

قلت: لا شيء، مبارك عليك.

أراد أن يحكي كل ما جرى له، كيف ذهب؟ ماذا أخذ معه؟ كيف استقبله والدها؟

تبا. لا يهمني حديثك.

سوف أعود إلى زنزانتي لأنني متعب جدا. خرجت إلى ساحة الثانوية فوجدت "دنيا" واقفة تنتظر خطيبها العجوز، وبشجاعة لم أعهدها في نفسي اقتربت منها وقلت لها: مبارك عليك الخطبة، نظرت إليّ نظرة لم أفهم معناها وقالت: شكرا لك فهيم.

لأول مرة تنطق اسمي.

عدت إلى الغرفة وأغلقت الباب، وبكيت بحرقة، وكان في بالي شيء واحد فقط، أن أضع حدا لحياتي، تذكرت بأنني رميت الحبل من مدة، فأخذت موس حلاقة وشرّحت ذراعي. كنت أحاول نزع اللحم كي لا أنسى هذا اليوم المشؤوم. ضربت جدار الغرفة بكلتا يديّ، وبرأسي حتى انفجر وسالت الدماء، كنت على وشك أن أقطع الأوردة، وإذا بخيال أمي يقف بجنبي ويضع يده على كتفي، ثم سمعت هتافها: لماذا تريد أن تقتل نفسك يا ولدي؟ هل تريد أن تتركني لوحدي؟

في تلك اللحظة قررت أن أسافر إلى قريتي لرؤية أمي، حملت حقيبتي الصغيرة ووضعت فيها بعض الأثواب والكتب وارتديت قميصا سترت ذراعي الملطخ بالدماء، ووضعت فوق رأسي قبعة واتجهت صوب القطار.

في ظرف أربع ساعات وصلت إلى قريتي.

سألتني الوالدة عن سبب هذا المجيء المفاجئ فكذبت عليها لأول مرة: لقد اشتقت إليك كثيرا.

دخلت إلى غرفتي، فلحقت بي وقالت: لقد جاءت فرقة الدرك الوطني تبحث عنك، ولما أخبرتهم بغيابك، تركوا لك رسالة. سألتهم عما بداخل هذه الرسالة قالوا: استدعاء الخدمة الوطنية.

أخذت الرسالة وقمت بفتحها فإذا هو الإعذار الأخير.

قلت لأمي: لا يهم ذلك، لم يبق على إجراء الامتحانات سوى شهر، ثم أتجه لأداء الواجب الوطني.

بقي أسبوع للمراجعة ثم أعود إلى الجامعة لإجراء امتحانات نهاية السنة.

عدت بفتور إلى الجامعة بعد انقضاء المدة، ودخلت للامتحانات بدون مراجعة وكانت أغلب إجاباتي ثقافة عامة. ولحسن حظي أن علاماتي كانت متوسطة ولم تكن ضعيفة.

في هذه الفترة كنت أحاول تجنب رؤية "دنيا" لأنها أصبحت لغيري.

لما حان وقت تسليم الشهادات، أقبل مدير المعهد يحمل شهادات التخرج، جلس جميع الطلبة في المدرج الذي تعرفت فيه على "دنيا".

اخترت مقدمة الصف، وعزمت على عدم النظر إلى الخلف، جلست فوق الكرسي وكأني أجلس على الجمر، انتظرت حتى أنهى

المدير توزيع الشهادات، ثم وقف الطالب المكلف بالتنظيم وقال: سوف يقدم المدير كلمته للدفعة.

شكر هذا الأخير طلبة الدفعة على سلوكهم الحسن وعلى اجتهادهم ومثابرتهم، وتمنى لهم حظا موفقا في حياتهم العلمية والعملية.

حديث روتيني لا معنى له.

خرجت من الجامعة بعد إنهاء هذه البروتوكولات أحمل في يدي شهادة التخرج، لأجد أمامي "دنيا" وهي تقف تحت شجرة الليمون في حرم الجامعة في مكانها المعهود، لست أدري لماذا لم تدخل؟ وعلى الأغلب جاءت متأخرة فلم تشأ أن تلج بعد دخول المدير.

نظرت إليها النظرة الأخيرة، نظرة الوداع. ثم عدت إلى قريتي الصغيرة.

عدت إلى والدتي وأخبرتها بحصولي على شهادة التخرج. قلت لها: سوف أخبرك خبرا مفرحا وآخر محزنا.

- ردت: إن شاء الله خير.

الخبر الأول: لقد تسلمت شهادة التخرج. أما الخبر الثاني: سوف ألتحق بالجيش غدا إذ لو تخلفت أكثر، لتمت ملاحقتي بتهمة العصيان. لم تجب الوالدة بكلمة واحدة، غير أن ملامحها عبرت عن تذمرها الشديد.

في الغد تركت الحياة المدنية والتحقت بالحياة العسكرية، حياة حب الوطن والفناء فيه، حياة الجهاد، وحب الشهادة والموت في سبيل الوطن.

لم يمض شهر حتى نسيت الحياة خارج الثكنة، نسيت كل الأشخاص الذين عرفتهم ومروا في حياتي باستثناء صورة الوالدة التي تركتها تبكي، و"نوال"، و"دنيا " التي لا تريد أن تمحى من مخيلتي، رغم علمي بأنها تزوجت وعادت رفقة زوجها إلى قريته الصغيرة القريبة من بومرداس.

(٥٩)

كم هو صعب أن تجد عملا في هذا الوقت وفي هذا الجو القذر، في هذه السنوات الحمراء والسوداء التي يتم طرد العمال من مناصب عملهم، لذلك فأنا أحمد الله أن الاستدعاء للتجنيد جاء في وقته، على عكس "عيسى" الذي ضاع في خضم هذه الحياة.

"عيسى" هو الثمرة الوحيدة التي خرج بها والداه من هذه الحياة، تم القبض عليه في إحدى العمليات التمشيطية التي قام بها الجيش الوطني بعدها تم استجوابه وتسجيل اعترافاته بالصوت والصورة قال:

[تعرفت بعد تخرجي على مجموعة من الشباب في المسجد، تجمعهم حلقات ذكر، تطورت فيما بعد إلى حلقات في السياسة والجهاد.

ذات يوم حدثني بعض أصدقائي أن خلية الدرك يبحثون عني لأنني مشتبه فيه، اقترحوا عليّ الفرار إلى الجبل، فلم يكن لي حل إلا الطاعة.

اشتغلت في بداية صعودي إلى الجبل عبدا عند الأمير، أجلب الماء من الوادي، أقوم بحفر الخنادق، أغسل أثواب الشيخ، أغسل الأواني، إلى غير ذلك من الأعمال التي يعافها الرجال.

وقعت في دوامة، أريد العودة إلى البيت غير أنني أخاف من الأمير "زكريا" الذي قد ينفذ في حكم الإعدام كما أخشى الدرك الذين بدؤوا فعلا في البحث عني.

اشتقت لوالدتي وأردت رؤيتها، غير أن الأمير رفض هذا الأمر، وقال لي بالحرف الواحد: أنت تحت التجربة، تعرف أن سنك ثلاث وعشرون سنة وليس لك خبرة في السلاح، لذلك قبل أن تذهب إلى والدتك ينبغي أن تتقن الرمي بجميع أنواع الأسلحة.

قال "عيسى": ومتى أبدأ التدريب؟

أجاب الأمير: سوف نقوم بدورية إلى الشمال وبالتحديد إلى بومرداس وهناك سوف تتدرب على استعمال كل الأسلحة.

مرّ شهر من هذه الحادثة، ليعلمني الأمير بأن أجهز نفسي للسفر.

قال: سوف نسافر في سيارة إلى مدينة لبويرة ثم نكمل الطريق سيرا على الأقدام نحو بومرداس عبر الجبال.

على الساعة الثانية صباحا وصلت المجموعة إلى غابات لبويرة وبدؤوا في تسلق الجبال ليلتحقوا بأكبر فرقة في هذه الجهة، وفعلا تم تدريبي على جميع الأسلحة، فرض علي الأمير "زكريا" البقاء في هذا المعسكر وكلفني بالقضاء على أحد المدنيين واسمه "موسى لهودي" والذي كانت لي معه معرفة مسبقة، هذا الشخص الذي استولى على أموال الأمير التي جمعها عبر ثلاث سنوات وفر بها إلى قسنطينة ليقامر بها.

لما أكمل عيسى حديثه أظلمت الدنيا والجيش لازال في الجبل، فجاء أمر من القيادة العليا بالمبيت في هذا المكان المرتفع، وتم تكليف بعض الجنود لحراسة السجين والتكفل به، إلا أنه وللأسف استطاع الفرار في تلك الليلة وترك رسالة كتب فيها: "سوف أنال منكم جميعا".

نعم لقد استغل الظلام الدامس وسط هذه الغابات ذات أشجار العليق، والإرهاق الذي أصاب الجنود ليفر نحو جماعته.

النهاية